النص بين سحر الإبداع وسلطة النقد
قراءة في مدارات منهج" البنيوية التكوينية"

الطالبة: فيـــــروز زوزو
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكرة

« الفكر الأصيل لا يولد على يد مفكر واحد، وإنما هو من صنع أجيال المفكرين المتعاقبة.»
– آمال منصـــور –

تمهيـــد :

يلجأ الباحث في ميدان العلوم الإنسانية لآليات إجرائية لها منطلقات خاصة، وذلك عائد لطبيعة هذا المجال البحثي. إن الباحث في مثل هذه التخصصات العلمية مجبر على الأخذ بعين الاعتبار أن عينة البحث ليست مادة جامدة أو معادلة ذهنية فرضياتها مجرد بديهيات علمية يجب التسليم بها وانتهى الموضوع. إن الباحث في ميدان اللغة والأدب يتعامل مع عينة غير ثابتة تتطور عبر الزمن بشكل متسارع، وهو ما يميزها عن باقي عينات العلوم الأخرى(والمقصود بالعينة **اللغة** المنطوقة والمكتوبة، و**الإنسان** الذي ينتج الأعمال الفنية – معا دون تمييز–).

من هذا المنطلق، سنرصد ملامح البحث العلمي في ميدان الأدب مع طرح لأهم مشكلاته المتوالية عبر مناهج النقد المتعددة، الطامحة إلى تحديد القيمة الفنية للعمل الأدبي ومدى أدبيته، والهادفة إلى التعرف على الدلالات العميقة الخاصة به أو نسبة تعالقه بالواقع الذي أنتجه.

وعليه، سنقوم في هذه المداخلة بإلقاء نظرة فاحصة على منهج البنيوية التكوينية وآلياتها، ونهدف إلى التأكيد على أبعـــــاد أساسية هي:

1- التعريف بالإطار الفلسفي للمنهج وتحديد نسبة الفعالية المرجعية للقيام بعملية البحث العلمي.

2- إقامة الربط بين الأدب والمجتمع وفق الأسس النظرية للمنهج وآلياته الإجرائية.

3- إبراز أهم المشكلات التي تواجه الباحث عند البدء في عملية تطبيق المنهج لنقد العمل الفني.

1- منطلقات المنهج من المرجعية الفلسفية إلى الرؤية النقدية:

1-1- الفلسفة والتأطير للمنهج النقدي:

معرفيًا، يتم قبل طرح أي منهج نقدي، والتعريف بآلياته الإجرائية يجب على مؤسسيه أولاً تقديم إطاره الفلسفي الذي يستند عليه ويتخذه قاعدة صلبة لأفكاره كي ينطلق لتحديد مقولاته الاصطلاحية ومفاهيمه الإجرائية.

وعلى هذا الأساس، قدمت البنيوية التكوينية نفسها كمنهج نقدي صارم، يستند على حقائق فلسفية جوهرية، ركائزها الأساسية:

1- فلسفة" هيجل **Hegel**" القائمة على إستراتيجية التفكير الجدلي" **لأن الكلية عند هيجل هي الحقيقة المطلقة، ولا حقيقة مطلقة خارج مدارات ثلاث: أولها الفن، وأوسطها الدين، وثالثها الفلسفة كمعرفة مطلقة بالوجود اللامتناهي، والتي يعرِّفها هيجل على أنها:" علم التصورات الكلية**".[1]

إن" هيجل" يؤمن بأن الفلسفة هي مرحلة الأهم حيث يقوم الوعي بتجاوز التعبير الفني الذي يتعارض مع الدين ليكوِّن التركيب الجامع الذي يكتمل بفضل تآلفهما ما يسمى بـــ: علم الكليات.

2- مادية" كارل ماركس **Karl marx**" التاريخية التي تهجو النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية القائمة في المجتمع البورجوازي، والتي يراها نظم لا إنسانية" **ما عبرت عنه الفلسفة الماركسية بالجدلية القائمة بين البنيتين التحتية والفوقية باعتبار أن الأولى تمثل مجموع الظروف الاقتصادية، والاجتماعية- والسياسية المعيشية، أي هي الواقع بكل تأثيراته المباشرة على الإنسان، أما البنية الفوقية فهي كيفية تعبير الإنسان المبدع/ منتج عن عالمه في مستوى متسام عن الواقع رغم أنه يعبر عنه بطرق تتفاوت في خصوصيتها من فرد لآخر**."[2]

يوجز ماركس فلسفته المادية في فكرة اغتراب الإنسان حين يتشيأ بسبب نظام تسوده الطبقية والتوزيع الغير عادل للثروة مع جعل العمل الإنساني العبقري عمل مستلب تحكمه قوانين السوق(العرض والطلب).

اعتنق الناقد" غولدمان **Goldmann**" مؤسس المنهج الطبيعة الجدلية عند النظر إلى حقيقة الإنسان وعلاقته بالكون الذي يحيط به. ظهور ثنائية" الداخل والخارج" في عصر التنوير أدى إلى تبلور أفكار جديدة عند فلاسفته وهو ما استعارته مناهج النقد لتحديد المساءلات الفلسفية.

إن أهم سمات الفكر الفلسفي الذي قامت عليه البنيوية التكوينية هي:

" **وفي الأخير يسوق لنا غولدمان جملة من أهم آراء ماركس الفلسفية التي تأسس بموجبها موقفه النقدي وهي:**

"– [إن الثورات بحاجة إلى عنصر هادئ، إلى قاعدة مادية، فالنظرية لم تطبق أبدا في شعب إلا حينما تكون تحقيقًا لاحتياجات] .

– [لا يكفي أن يسعى الفكر إل التحقق، فالواقع نفسه عليه أن يسعى إلى الفكر] (...)" يهجو ماركس في كل ما كتب النظم الاقتصادية والسياسية التي أفرزت ثقافة وأخلاقا ونظما اجتماعية وإنسانا ضد الإنسانية."[3]

على مستوى الرؤية الفلسفية، اعتنقت البنيوية التكوينية فلسفة" هيجل" الجدلية، والمادية التاريخية لـــ:" ماركس" لخوض معركة التغيير الاجتماعي فربطت كمنهج تحليل للنصوص: **الأدب بالمجتمع** و**النص بالسياق** باعتبارها العلاقة الأكثر أهمية أثناء التحليل.

لكن بعد انهيار الإيديولوجية الاشتراكية، دخل المنهج دهليزًا قاتمًا بحكم إقرار البعض بعدم كفاءة أو فعالية دعائمه الفلسفية بعد السقوط المدوي للركيزة الفكرية الداعمة لآلياته المنهجية. وحتى نتخلص من عبء هذا الفشل الميداني للفلسفة الماركسية، وتأثيراته الجاثمة على مرتكزات البنيوية التكوينية يجب الإقرار ثم الإصرار على أمر هام هو:

الفلسفة الماركسية هي صرخة إنسانية قبل أن تكون جهود حثيثة لفرض السيطرة الأحادية من طرف أتباعها على الفكر البشري حيث قال ماركس حين زار كمونة باريس: " إذا كانت هذه هي الماركسية فأنا لست ماركسيًا بالتأكيد"، ويقول" إنجلز **Engels**" حين

صدم بالماركسية المزعومة بفرنسا بعد الثورة التي أطاحت بالملكية:" الأمر الأكيد هو أنني لست ماركسيا".

" **لا أحد ساهم أكثر من ماركس، منذ قرن و نصف- في أن يجعلنا نكتشف نظريًا، ونتحقق تطبيقيًا- بتجريد هذه الصيغة من الأصداء التي منحها إياها هيدغر- بأن الإنسان هو القصيدة التي نشأ بها الكون.**"[4]

وبهذا نكون قد أبقينا فقط على خلاصة المحتوى الفلسفي للماركسية، والتي هي مقولات مفصلية تعبِّر عن جوهر المفاهيم الجديدة المتعلقة بالإنسان والعالم في المجتمع الحديث. إن تناول المفاهيم الماركسية كركيزة للمنهج ليس تهليلاً لماركس أو دفاعًا عن فلسفته المادية أو حتى محاولة لاهثة لإزالة الغبار عن آراء تم تجاوزها بحكم الزمن على الأقل(مع أن الأفكار لا تموت في الحقيقة)، بقدر ما هو مجرد تعميق نظري لمنطلقات ابستيمولوجيًا هي مفاهيم مركزية وجوهرية عن الإنسان، لأنها مقولات أكدت على هذا الأصل والجذر، وذلك لدراسة أسباب التناقضات الحاصلة في المجتمع الإنساني الحديث، والنتائج الناجمة عن الصراع اللامتكافئ بين الطبقات والجماعات البشرية.

يجب التأكيد أيضا على أن فعل الممارسة ليس محكًا لدحض المقولات النظرية بل هو قطب تعارضي ضروري للوصول إلى وحدة علمية- من حيث النظرية والممارسة- أكثر دقة وصلابة وفعالية في تناول الذات لموضوعها- أيا كان هذا الموضوع-، كما يؤكد على ذلك الفيلسوف الأمريكي" إريك فروم **Erich Fromm**":

" **في الحقيقة، إن تفكير" غوته"، و" هيجل" و" ماركس"، هو متقارب بشكل شديد، مع تفكير" زن"*. وما هو مشترك بالنسبة لهم، هو فكرة أن الإنسان قادر على التغلب على حالة انفصال الذات والموضوع: الموضوع هو موضوع، مع ذلك، فإنه ينتفي كموضوع، كما أنه من خلال هذا الدنو يصبح الإنسان متوحدًا مع الموضوع، برغم أنه وإياه يبقيان اثنين. إن الإنسان من خلال تواصل ذاته مع العالم الموضوعي، بشكل إنساني، يقهر الاغتراب الذاتي.**"[5].

وحين يصبح الحديث عن الإنسان فإن كل الفلسفات تجمع على موضوع واحد هو التعايش والعدالة الاجتماعية، وضرورة نشر السلام في العالمين الداخلي والخارجي لقهر التشيؤ وكل أنواع الاغتراب الذي قد تعيشه البشرية بسبب الظروف المحيطة.

2-1- التحديد الاصطلاحي لآليات البنيوية التكوينية:

لكل منهج نقدي أسس لسانية ومصطلحات نقدية تدعمه أثناء القيام بعملية البحث العلمي « **تركزت جهود البنيويين في الكشف عن قواعد تنظيم البنية اللسانية للأدب. لاعتقادهم بأن اللغة تنتج المعنى وليست حاملة له فقط.**»(6)

عندما نعتمد على منهج نقدي معين نشتغل على آليات محددة لفك شفرات النص وتوضيح دلالاته الخفية حيث تتضافر كل مصطلحاته النقدية للتنقيب على تلك الجواهر الدفينة في العمل الفني لتبيين قيمتها الجمالية العالية حرصا منها على تحقيق المتعة الأدبية التي تتمتع بها بنية النص وتستتر خلف شكله الخارجي. إن عملية الخفاء والتجلي التي يمارسها النص تنقشع ضبابيتها أمام الآليات الإجرائية أثناء عملية التحليل الأدبي.

تأثر الناقد" غولدمان" بطروحات البنيويين وأفاد من النظرية الماركسية وتفسيراتها المادية كما ارتبطت أفكاره بآراء أستاذه" لوكاتش **Lukács**" كثيرًا الذي يرى بأن" **الأدب كإبداع يمثل مظهرا من مظاهر الوعي الاجتماعي.**"(7)

تدرك الأفكار الفلسفية لهذا المنهج من خلال مقولات" لوكاتش" المتناثرة في مؤلفاته مثل: - الكلية- البنية- البطل الإشكالي،- الرواية ملحمة بورجوازية، ... الخ، والتي تربط الأعمال الإنسانية ببنى المجتمع وترى بأن كل واقعة إنسانية هي واقعة جماعية بالدرجة الأولى، وهي واقعة دالة بفعل التماسك والتجانس.

لقد توصل الناقد" غولدمان" بفضل كل هذه الإسهامات إلى بلورة جملة مفاهيم شاملة أصبحت معالم تنير منهجه ولم يتحول عنها طيلة حياته العلمية، بل اعتبرها مرتكزاته النقدية الأساسية لتحليل أي عمل:

1- <u>رؤيا العالم</u>: مقولة أساسية لدى الناقد" غولدمان" تكشف ذلك التعالق الموجود بين العمل كتعبير فني وبين الوعي الجماعي لطبقة ما.

" **إن ما تريد رؤيا العالم قوله في مختلف تجلياتها كمقولة أساسية هو أنه لا يمكن بحال من الأحوال الاعتقاد بأن النص ظاهرة معزولة عن البنية الاجتماعية التي نشأت فيها، إذ لا يمكن الاقتصار على العالم الداخلي للنص فقط، كون هذا الأخير يقيم علاقات من نوع آخر علينا اكتشافها مع عالمه الخارجي الرحب من مجتمع، وتاريخ، وعالم ثقافي، (...).**"(8)

2- <u>الوعي القائم والوعي الممكن</u>: أطلق الناقد هذا المفهوم ليدل على وجود طبقة اجتماعية تزداد قهرا بسبب النظام الرأسمالي" **الأدب يجب أن يغير في الحياة الاجتماعية والتاريخ، كما يؤثر في المجتمع والتاريخ في الأدب.**"[9]

إن هذه الطبقة تنظر إلى واقعها بكل وعي، وتسعى في ذات الوقت إلى تحقيق مستقبل أفضل لها كطبقة عبر وعيها الممكن أن يتجلى عبر رغبتها في التغير الاجتماعي داخل العالم الذي تعيش فيه.

3- <u>البنية الدالة</u>: قام الناقد" غولدمان" بمزج ركيزة بنيوية(البنية) مع مفهوم أستاذه " لوكاتش"(النظرة الشمولية) لينبثق للوجود النقدي مصطلح هام في المنهج التكويني هو البنية الدالة حيث تحمل أكثر الأعمال الأدبية دلالة اجتماعية تنبجس من بنية النص" **إن المقصود بكلمة البنية الدالة(أو الدلالية، هو المعنى الداخلي لهذه البنية الذي ينم عن وعي جماعي معين.**"[10]

بالإضافة إلى مفهوم **البطل الإشكالي** وعملية **الفهم والتفسير** اللذين يستخدمان في مدار المقاربة التكوينية لتحليل أي نص إبداعي.

2- نحو مقاربة تكوينية للنص الأدبي:

يعمل المنهج على فهم العمل ثم شرحه من منطلق آلياته الجوهرية، والثابتة لا يتحول عنها- والتي هي قابلة للتعديل لا للتحوير- حيث يبحث عن اللبنات الرئيسة المؤسسة للإبداع الأدبي قصد تبيينها للقارئ الذي يسعى إلى التعرف على الدلالات العميقة لهذا العمل دون أن يمتلك الوسائل المساعدة على ذلك، وهو الدور الرائد الذي يقوم به الباحث. يأتي الناقد ويربط بين الثوابت اللسانية والأسس النظرية للمنهج لتدله على بنى العمل الفني، وتحديد قيمته الجمالية والوظيفية وفق أحكام القيمة ومعايير انفتاح النص على السياقات المختلفة

« **حاول غولدمان المزاوجة بين النزعتين، البنيوية والاجتماعية بتحويلهما إلى تركيبة منهجية، بل معرفية أيضا جديدة هي البنيوية التكوينية، والتي تمثل ردة فعل على البنيوية من حيث هي" نزعة شكلانية خالصة تغتدي هشة، فجة، بسقوطها في الميكانيكية الشكلية التي تجرد الأدب من وظيفته الاجتماعية، وفعاليته الإنسانية، وتأثيره الجمالي وتجعل منه مجرد صدى فارغ لعمل اللغة من حيث هي كائن خارج إطار التاريخ (...)**".»[11]

حاولت البنيوية التكوينية فتح النص وعدم عزله داخل بنيته المغلقة من خلال تأكيد العلاقة الموجودة بين النص والواقع، ومهمة الناقد هي البحث في طبيعة هذه العلاقة للكشف عن موقع المبدع ومكانة نتاجه في عصره. ترقى مركزية هذه المقولات لأن تكون مستندات هامة لمعرفة مدى عمق النص كملحمة بورجوازية بجدارة.

لا شك أن المنهج نجح في تفعيل تلك العلاقة القائمة بين **النص والسياق** خاصة الاجتماعي منه في محاولة منه لعدم عزل النص عن المجتمع والتاريخ والإنسان الذي هو مبدعه أو البطل الذي ينسج أحداثه لكن تركيزه على الشرح جعله يهمل وبشكل واضح شق الفهم في عملية الفهم والتفسير. كما أن التأكيد على وجود رؤيا للعالم في النص الإبداعي جعل الباحث يجتهد لاستخراجها مع أنها قد تكون معالمها غير واضحة، وبل هي في بداياتها لا ترتقي إلى مستوى الايدولوجيا الطبقية.

لكن استمرار المنهج اعتبار النص الإبداعي مجرد نتاج إيديولوجي كفَّ الأدب على أن يكون خلق فني ومتعة لغوية في نظر الذين ينتقدون البنيوية التكوينية.

وقصور الآليات المنهجية أثناء نقدها للنص على ضرورة استخراج البنى الدالة والكشف عن رؤى العالم الخفية مع إهمال نسبي للشكل جعل رواد المنهج ونقاده يسارعون إلى استكمال التحليل التكويني بآليات أخرى مساعدة تهتم بالشكل كما المضمون، من بين هؤلاء نذكر مثلا:

– الناقد" بيير زيما ***Pierre* Zima**: حوَّل مرساة الدراسة النقدية من سوسيولوجيا الأدب إلى سوسيولوجيا النص مستلهمًا من وظائف اللغة ودورها داخل النص(التعدد اللغوي).

– الناقد" جاك لينهارت **Jack Lenhardt**": من تلامذة الناقد، قام بإضافات منهجية تزيد من فاعلية مفاهيم غولدمان.

– الناقد" سمير نايير **Samir *Nayer***": جمع مقالات أستاذه" غولدمان"، وحاول إثبات مدى نجاعة المنهج وأن أستاذه لم يستطع استكمال تفاصيل منهجه النقدي بسبب الموت المبكر. وغيرهم من تلامذة مؤسس البنيوية التكوينية، ورواد المنهج، والنقاد الذين تبنوه كمشروع نقدي يعملون عليه، وذلك في الساحتين الغربية والعربية.

سنؤكد قبل النهاية، أنه من بين مشكلات تطبيق المنهج التالي:

1- ليس بالضرورة كل المؤلفات تسمو لحد اعتبارها تعابير فنية عن وعي جماعي طبقي.

2- ليس كل نص هو بذلك القدر الكبير من التماسك والانسجام ليجسد رؤيا عن العالم شمولية.

3- قد لا يتواجد ذلك التماثل بين بنية النص الأدبية والبنية الذهنية لطبقة ما.

4- ليس من الضروري أن يحمل النص بذور ثورة اجتماعية أو شعارات التغير الاجتماعي.

5- قد يكون النص مجرد إبداع فردي لفرد منعزل عن العالم الذي يحيط به.

6- الصرامة النقدية للمنهج جعلت عملية التحليل تبتعد عن فكرة هامة وهي أن النص بنية انزياحية يقدِّم المتعة الجمالية للقارئ كما يحمل الدلالات المتعددة عبر معانيه وداخل عالمه الخاص.

* ولكن رغم هذه الفجوة في الممارسة التطبيقية التي قد تجعل المنهج بآلياته الإجرائية غير قادر على مقاربة النص ونقده عبر مستويات التحليل المختلفة بدءا من البنية السطحية وصولا للبنية العميقة لن ننقص من أهمية المنهج وسنقول من باب الأمانة العلمية (كباحثين): أن البنيوية قد تطورت كمنهج نقدي واستطاعت الاستمرار بانتشالها من الجمود الشكلاني بفضل البنيوية التكوينية وباقي الفروع الأخرى لها... وكذلك استطاع المنهج بمقولاته الخاصة إنارة زاوية هامة من النص، وأسس لطريقة تحليل مختلفة تفردت بها البنيوية التكوينية.*

*** خلاصة (وجهة نظر):**

تعمل مناهج النقد الأدبي جاهدة على إعادة الاعتبار لجماليات المغامرة الإبداعية للكتاب من خلال نفض الغبار على ذات النص العميقة، والنظر إلى بناه المتنوعة على أنها جواهر لا تريد أن تدخل دهاليز النسيان لمجرد مشكلات عويصة يتعرض لها منهج البحث العلمي.

يسعى الباحثين عند حديثهم عن الأزمات النظرية والتطبيقية لأي منهج نقدي إلى تقديم حلول علمية تساعد المنهج على التطور وعدم تجاوزه لمجرد وجود مشكلات في الممارسة تعترض الباحث لها أثناء عملية النقد. هوية المنهج التي تشكلت تبعا لدعائم فلسفية وأسس

نظرية قد تتعرض للنقد اللاذع من قبل نقاد منهج آخر لكن ذلك لا يجب أن يجعل الثقة في الإطار الفلسفي والنظري تهتز، بل يجب أن تطعم بكل جديد يقوي أدائها النقدي ولا يضعفه.

إن الاشتغال العلمي على العمل الفني وفق مناهج البحث يواجه دائما تحديات جديدة على النقاد أن يتصدوا لها ليستمر المبدع في كتابة النصوص الجيدة، وهي بذلك تكون قد جسدت بحق الدور الرائد للناقد الباحث في مختلف زوايا النص الإبداعي، المعبِّر عن مختلف فئات المجتمع التي ينقل للقارئ آلامها وآمالها المستقبلية.

ستبقى مناهج النقد الأدبي في رحلة بحث دائم عن ذاتها وهويتها الفردية التي تميزها عن غيرها دون لفض الاتجاهات النقدية الأخرى التي تقدم بلا شك زاوية رؤيا مختلفة تبين رونق النص الإبداعي ومدى شاعريته.

الهوامش:

1- محمد الأمين بحري:**البنيوية التكوينية- من الأصول الفلسفية إلىالفصول المنهجية-**، منشورات دار الثقافة، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، بسكرة، الجزائر، ط1، 2013، الصفحة: 26.

2- المرجع نفسه، الصفحة: 32.

3- المرجع نفسه، الصفحة: 40، 41.

4- روجيه غارودي: **الماركسية**، تر: محمد الأمين بحري، دار الحكمة للنشر، الجزائر، د.ط، 2009، الصفحة: 193.

5- إريك فروم: **مفهوم الإنسان عند ماركس**، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1998، الصفحة: 60.

*" **زن** ": شخصية بوذية معروفة.

6- بشير تاوريريت: **محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر**، مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2006، الصفحة: 11.

7- إريك فروم: **مفهوم الإنسان عند ماركس**، الصفحة: 60.

8- محمد الأمين بحري: **البنيوية التكوينية**، الصفحة: 88.

9- آمال منصور وآخرون، رؤيا العالم بين سلطة الماركسية وسحر النسق في الغريب لألبير كامو: **نظرية القراءة- المفهوم والإجراء-** منشورات مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، بسكرة، الجزائر، ط1، 2009، الصفحة: 194.

10- جمال شحيد: **في البنيوية التكوينية- دراسة في منهج لوسيان غولدمان**، دار ابن رشد للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ط، 1986، الصفحة: 80.

11- بشير تاوريريت: **محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر**، الصفحة: 41، 42.